

تأملات في بعض مقاصد سورة البقرة

www.maarig.com

أحمد بن ناصر بن محمد الحارثي قسم القرآن وعلومه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فهذه خواطر وتأملات في بعض المقاصد التي رعتها السور القرآنية، نسأل الله أن يلهمنا معانيها ورشدها ويوفقنا للعمل بمقتضاها.

والبداية مع السورة الوارفة الظلال، الممتدة الأغصان، الكبيرة نظماً، العميقة معنىً، الجليظة مقصداً، أول الزهراوين، اللتين "تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَاتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، أَفْرُؤُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَهٌ، وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ"¹

وفي الآن الذي تتدافع فيه الأمم اليوم لتصنف نفسها أمة وشعباً ودولة مختارة، تُجلي لنا سورة البقرة أن سنة الاصطفاء الإلهي التي وقعت يوماً ما على بني إسرائيل {وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}؛ إنما كانت نتيجة استمسك بالوحي الرباني، وحمل للأمانة، ورفع لراية التوحيد، ودفاع عنها، إلا إنهم حينما أفلتوا حبل الله، ومردوا على التحايل على أمر ربهم، وألفت نفوسهم بالإثم والعدوان، {كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيحًا كَذَّبُوا وَفَرِيحًا يَقْتُلُونَ}؛ مُسَخُوا ولعنوا وأزاغ الله قلوبهم، ولن يزال العالم يرى منهم كل شر وخساسة ورذيلة؛ فأصبح المقربون بالأمس مطرودون اليوم، وهي سنة ربانية ماضية، وقاعدة عامة ليست منحازة إلى عرق أو لون أو طائفة، ولا تحابي أحداً على أحد، وما أمتنا منها ببعيد.

¹ رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل القرآن وسورة البقرة

ولا يمكن لعين متدبرة لسورة البقرة أن تخطئ في رؤية هذا المقصد العظيم، الذي دعت إليه بالتصريح تارة وبالتلويح تارات، ودارت حول محوره رحي براهينها وقصصها وأمثالها، إقامة للدليل على أن الكتاب هدى لِيَتَّبِعَ فِي كُلِّ حَالٍ²، وَيُتْلِقِ حَقَّ التَّلْقِي، وأن معاهد النهوض والانتصار في القيام بأمانة الله، والاستمسك بحبل الله، والتسليم لأمر الله.

وفيها إشارة إلى أن هذا الكتاب فينا كما لو كان فينا خليفة من أولي العزم من الرسل -عليهم السلام- يرشدنا في كل أمر يحزبنا، وشأن ينوبنا، إلى صواب المخرج منه، فمن أعرض خاب، ومن تردد كاد، ومن أجاب اتقى وأجاد³.

وقد ابتدأ نزول آيات سورة البقرة بداية العهد المدني بعد الهجرة إلى المدينة المنورة، "وظلت السورة مفتوحة يضم إليها النبي الكريم ما شاء الله أن يضيفه إليها من وحي يتصل بموضوعها، ومعروف أن آخر آية نزلت⁴ من القرآن كله هي قوله تعالى [وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ] ٢٨١ [البقرة: 281] وقد أمر النبي -عليه الصلاة والسلام- بضمها إلى الآيات التي تتحدث عن الربا في خواتيم سورة البقرة⁵

فلا عجب أن تشتمل آياتها على أركان الإسلام الخمسة، وجملة من القضايا الاجتماعية والمالية وقواعد المعاملات، لأن الدين نظامٌ ومنهجٌ يشمل كل تفاصيل حياة الناس وعلاقتهم برهيم وبما حولهم من الموجودات، وفي ذلك إشارة إلى أن أخذ الدين وتلقي هذه لابد أن يشمل كل شؤون الحياة وليس في جانب دون آخر، [أَفْتُومُنُونَ بِبَعْضِ الْكُتُبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ] [البقرة: 85]

² «مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي» (9/2):

³ «مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي» (10/2):

⁴ على قول.

⁵ نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، محمد الغزالي ص. 12

ولنا أن نستنطق هذا المقصد العظيم في السورة الكريمة باختصار شديد من خلال النقاط الآتية:
أولاً: مقدمة وخاتمة السورة:

افتتح الله تعالى السورة بقوله [الْم ١ ذَلِكَ أَلَكِتَبُ لَا رَبِّبُ فِيهِ هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ ٢] [البقرة: 1-2] والإشارة في مطلع السورة واضحة جلية بأن هذا الكتاب يتضمن هداية البشرية التي ينبغي أن تؤخذ بقوة، كما قال الله مخاطباً أحد أنبيائه [يُحْيِي خُذِ أَلَكِتَبُ بِقُوَّةٍ] [مريم: 12] لأنه حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فهو [لَا رَبِّبُ فِيهِ] [البقرة: 2] لا يتخلله أي خطأ أو شذوذ، وهو منسجم مع بعضه البعض كانسجام سائر موجودات الكون ، وهو هدى للمتقين الذين يؤمنون به شهادة وغيبا ، عكس المنافقين الذين يدعون الإيمان شهادة وينكرون غيبا ، والمشركين الذين يجحدون شهادة وغيبا ، وقد ذمهم القرآن لعدم اهتدائهم بنوره وهديه وجعلهم كالصمّ البكم العمي الذين فقدوا هذه المشاعر والحواس، إذ هم حين لم ينتفعوا بآثارها فكأنهم فقدوها، فما فائدة السمع إلا الإصاخة إلى نصح الناصح وهدى الواعظ، وما منفعة اللسان إلا الاسترشاد بالقول، وطلب الدليل والبرهان، لتتجلى المعقولات، وتتضح المشكلات، وما مزية البصر إلا النظر والاعتبار، لزيادة الهدى والاستبصار، فمن لم يستعملها في شيء من ذلك فكأنه فقدها، وأنى لمثله أن يخرج من ضلالة، أو يرجع إلى هدى؟⁶

وفي ختام السورة [ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ - وَأَلْمُؤْمِنُونَ] [البقرة: 285] ثناء على النبي الكريم والأمة المحمدية بأنها لن تزال حاملة لشعلة الإيمان الحق ، ثناءً يحمل من التشريف ما يضاويه من التكليف ، بغية أن تبقى وتثبت على منهج الرشاد ، القائم على العزم بالنواجذ على هذا الدين وتلقي القرآن والوحي الرباني بالتسليم [كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ - وَكُتُبِهِ - وَرُسُلِهِ - لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ] وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ [البقرة: 285]

⁶ «تفسير المراغي» (58/1)

ثانيا: علاقة اسم السورة بالمقصد:

اسم السورة يشير إلى رمزية قصة البقرة التي أخفق فيها بنو إسرائيل في تقدير الأمر الرباني والتعامل معه بمنطق الجدل والكبر وعدم التسليم والمماطلة والتحايل على أمر الله، فكانت عاقبة تعاليمهم على هدى الله أن بلغت قلوبهم من القسوة ما يفوق الحجارة الصلدة، وهذه عقوبة دنيوية معجلة تقودهم إلى العقاب الأخروي الأبدي.

ثالثا: تصريحات وتلميحات السورة للمقصد العام:

اشتملت السورة الكريمة على آيات بينات تشير صراحة وتلميحا إلى هذا المقصد العام من مقاصدها كما في قول الله تعالى:

- ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 44]
- والاستفهام إنكاري يفيد التوبيخ وذم خصلة التلاوة دون عمل بمضامينه.
- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ الْنَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتْ الْيَهُودَ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: 113]
- ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ ۗ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: 121]
- والآيات تشير إلى أن تلاوة الكتاب المأمور بها هي المقترنة بالعمل به وتلقيه حق التلقي وأخذه بخضوع القلب وانقياد الجوارح.

رابعا: من قصص السورة:

قصة آدم: ضرب الله فيها مثلين؛ أحدهما بحال الشيطان حينما أعرض عن الهدى ولم يتلق الأمر الرباني بالتسليم والطاعة فكان مصيره البوار، وثانيهما حال آدم الذي قدر الله عليه وعلى ذريته الخطأ، "كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون" ولكنه تاب وأناب، فتلقى كلمات من ربه فتاب

عليه وهدي، [فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ - كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۳۷] [البقرة: 37] وكان مثالا في منهج التمسك والتلقي لهدي الله بالإذعان التام .

قصة البقرة: وفيها يضرب الله لنا مثلا في القوم الذين تنكبوا عن الصراط واتبعوا أهواءهم مع كل المنن التي أعطاهم الله إياها ومع رسولهم الذي حاول جاهدا إقناعهم ودعوتهم لقبول هدى الحق عز وجل، وذلك جلي واضح حينما خاطبهم بأن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، والتصريح بأن مصدر الأمر هو الله ترغيبا لهم لينقادوا له، ولكنهم لاجوا وجادلوا فشدد الله عليهم، وفي الأخير وإن كانوا ذبحوها إلا أن الله وصفهم بقوله [وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ] [البقرة: 71] من شدة مماطلتهم واستهتارهم بالأمر الرباني.

قصة طالوت: وفيها يحكي لنا الله -عز وجل- حال أكثر الناس وعدم يقينهم بقدرة الله وقهره وعدم تلقيهم للأمر الرباني بالتسليم والانقياد ، فهم طلبوا أن يكون لهم ملك يجمع شملهم ويوحد شتاتهم ، فأخبرهم نبيهم بأن الله - وليس غيره - اختار لكم طالوت ملكا ، فحكموا عقولهم القاصرة وقدموها على حكمة الله وعلمه، ورفضوا اختيار الله وخيرته لهم ، ومن رحمة الله بهم أن أراهم آيات حسية ليسلموا وينقادوا، ومع ذلك لما خرجوا مع طالوت سقطوا في الامتحانات المرة تلو الأخرى حتى ما بقي منهم إلا فئة قليلة تلتقت الهدى والأمر الرباني بالتسليم والانقياد موقنة بأن خوارزميات النجاح والنصر إنما هي في التمسك بحبل الله وحده [قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا آلَ اللَّهِ كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ٢٤٩] [البقرة: 249]

وأخيرا أختتم بأنه لا مكان لأمة الإسلام على خريطة العزة والسؤدد إلا أن يثوبوا إلى دينهم، ويتمسكوا بتعاليم ربهم، ويقولوا بلسان حالهم قبل مقالهم: {سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [البقرة: 285]

{بَنَّا لَا تَوَاحِدْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [البقرة: 286]

